

## الحدائثة والمجتمع الإسلامي

**الحدائثة والمجتمع الإسلامي :** لقد أفرزت الحدائثة ما يمكن أن نطلق عليها القراءات الحدائثة للنص القرآني، وهي محاولات للنيل من قدسية وسمو النص القرآني من خلال تأويله وفق المناهج التي وضعت لفهم النصوص الأدبية بداية من الهرمنيوطيقا ومرورا بنظرية موت المؤلف ثم التاريخانية ثم النبوية والتفكيكية وكل منها يحتاج الى دراسة مطولة [1]، الأمر الذي لا مناص معه من التعرض للحدائثة باعتبارها البيئة التي أفرزت هذه القراءات التأويلية واصطبغت هذه القراءات بالصبغة الحدائثة منهاجا ومضمونا للوقوف على جدوى هذه الحدائثة من عدمه بالنسبة لمجتمعنا الإسلامي، والرد على المبررات المزعومة لضرورتها لتطوير الفكر الاسلامي.

### تعريف الحدائثة

يمكن أن نبدأ بتعريف **مصطلح الحدائثة** وفقاً للمفهوم العربي ولمعاجم اللغة العربية، ففي لسان العرب: الخدِثُ: نقيضُ القديم، والخُدُوثُ: نقيضُ القُدُمةِ. حَدَّثَ الشَّيْءُ يَحْدُثُ حَدُوثًا وَخَدائِثًا، وَأَخَدَثَهُ هُوَ، فَهُوَ مُخَدِّثٌ وَخَدِيثٌ، وَكَذَلِكَ اسْتَحَدَثَهُ وَأَخَذَنِي مِنْ ذَلِكَ مَا قَدَّمَ وَخَدَّثَ؛ وَلَا يُقَالُ حَدَّثَ، بِالضَّمِّ، إِلَّا مَعَ قَدَمٍ، كَأَنَّهُ إِتْبَاعٌ، وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ.

وقال الجوهري: لَا يُضَمُّ حَدَّثَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَذَلِكَ لِمَكَانِ قَدَّمَ عَلَى الْأَزْدِوَاجِ.

وفي حديث ابن مسعود: “أَنَّهُ سَلَّمَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَصْلِي، فَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ السَّلَامَ، قَالَ: فَأَخَذَنِي مَا قَدَّمَ مَا حَدَّثَ” (أخرجه البخاري ومسلم)؛ يعنى همومه وأفكاره القديمة والحديثة. يقال: حَدَّثَ الشَّيْءُ، إِذَا قُرِنَ بِقَدَمٍ ضَمًّا، لِلأَزْدِوَاجِ. وَالخُدُوثُ: كَوْنُ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ. وَأَخَدَثَهُ اللَّهُ فَخَدَّثَ. وَخَدَّثَ أَمْرٌ أَي وَقَعَ.

ومُخَدِّثَاتُ الْأُمُورِ: مَا ابْتَدَعَهُ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي كَانَ السَّلْفُ الصَّالِحُ عَلَى غَيْرِهَا .

وفي الحديث: “إِنَّا كُمْ وَمُخَدِّثَاتِ الْأُمُورِ” (حديث صحيح أخرجه أبو داود والترمذي) ، جمعُ مُخَدِّثَةٍ بِالْفَتْحِ، وَهِيَ مَا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا فِي كِتَابٍ، وَلَا سُنَّةٍ، وَلَا إِجْمَاعٍ .

وهكذا تحدد معنى الحدائثة لغةً في قولهم: حدث الشيء يحدث خُدُوثًا وَخَدائِثًا، وَأَخَدَثَهُ فَهُوَ مُحَدِّثٌ وَخَدِيثٌ. وكذلك استحدثته.. فالحديث هو إيجاد شيء لم يكن وابتدعه. والحديث والحدوث نقيض القديم والقُدُمة، وكون الشيء لم يكن. وما ابتدع، والمحدث هو الأمر المبتدع، واستحدثتُ خبرًا؛ أَي: وَجَدْتُ خَبْرًا جَدِيدًا، وَالحديث الجديد من الأشياء. والحدث هو



## تعريف الحداثة في اللغات الأجنبية

وفي اللغات الأجنبية (الإنجليزية والفرنسية) نجد أنّ كلمة حداثة لفظ أوربي المنشأ، ففي الإنجليزية لفظان: Modernism وmodernity، ومثلهما في الفرنسية، والترجمة العربية لهذين المصطلحين تختلف من حداثة إلى عصرية إلى معاصرة.

فالبعض [3] يفرق في الترجمة بينهما على النحو الآتي:

- (Modernity) تعني المعاصرة والعصرية؛ وتعني المعاصرة: "إحداث تغيير وتجديد في المفاهيم السائدة، والمترابطة عبر الأجيال نتيجة تغيير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن.

- (Modernism) تعني الحداثة التي هي مذهب أدبي أو نظرية فكرية تدعو إلى التمرد على الواقع، والانقلاب على القديم الموروث بكل جوانبه ومجالاته. وآخرون يجعلون كلمة (Modernism) لفظاً دالاً على حب الجديد، كما يدلُّ على العصرية، ثم تطور حتى غدا مصطلحاً له دلالة على مذهب الحداثة المعلوم في الأدب كما سيظهر.

أمّا كلمة (Modernity) فهي تصف الزمن الثاني لهذه الحداثة كما تصف حداثة الأدب بكونه عصرياً. فللمصطلح جذرٌ عربيٌّ له دلالة من حيث مشتقاته، فهو يعني: الجدة - الشباب - أول الأمر وبيدائه - حدوث شيء لم يكن - الخبر إلى غير ذلك من المعاني، لكنه عند الترجمة من اللغة الأجنبية إنجليزية كانت أو فرنسية نجد اللبس والغموض والاضطراب والتفاوت واقعاً ظاهراً، وهذا لا شك ينقل الاضطراب والتفاوت إلى المفهوم والتعريف الاصطلاحي.

## الحداثة بين المفهوم العربي والغربي

وحاول بعض الباحثين [4] أن يقرب بين مفهوم الحداثة في اللغة العربية ومفهوم حداثة الاصطلاح في الغرب، فيرى أنّ جوهر الحداثة في اللغة العربية هو الشيء الذي ليس له قديم، ليس له ارتباط بجذور أو بموروث، وهو ما انتهى إليه المعجم الفلسفي، الذي صدر عن مجمع اللغة العربية المصري، حيث يذكر معنى الحادث: أنّه ما يكون مسبقاً بالعدم، فهو كائن بعد أن لم يكن، إذًا نفس معنى القطيعة مع الماضي، وليست له جذور.



وقد عبّر عن هذا المفهوم للحدثة بعض الباحثين بقوله: إنّ الحدثة ثمرة التنوير الغربي، وهي في جوهرها قطيعة مع الموروث المعرفي، ويضيف أنّه لم يعد الإنسان يخضع إلا لعقله، وأنّه منذ الآن فصاعد راح الأمل في الله ينزاح؛ كي يخلي المكان؛ لتقدم عصر العقل وهيمنته، وهكذا ولي نظام النعمة الإلهية، وأخذ ينمحي ويتلاشى أمام نظام الطبيعة. بالطبع يمكن للمعجم اللاهوتي القديم أن يستمر، ولكنه لم يعد يوهم أحدًا، فنفس الكلمات ولم يعد لها نفس المعاني، لقد أصبح الإنسان حده مقياسًا للإنسان. [5]

أمّا إذا نظرنا إلى آراء المفكرين فأدونيس على سبيل المثال أشار إليها في مؤلفه “الثابت والمتحول” بأنّها: “الصراع بين النظام القائم على السلفية، والرغبة العاملة لتغيير هذا النظام”، ثم يذكر في الكتاب نفسه أنّه “لا يمكن أن تنهض الحياة العربية، ويبدع الإنسان العربي إذا لم تنهدم البنية التقليدية السائدة للفكر العربي، ويتخلص من المبنى الديني التقليدي الاتباعي”.

ويرى الدكتور جابر عصفور أنّ الحدثة: هي “البحث المستمر لمعرفة أسرار الكون من خلال التعمق في اكتشاف الطبيعة، والسيطرة عليها، وتطوير المعرفة بها؛ ومن ثم الارتقاء الدائم بموضع الإنسان من الأرض، أمّا سياسيًا واجتماعيًا، فالحدثة تعني الصياغة المتجددة للمبادئ والأنظمة التي تنتقل بعلاقات المجتمع من مستوى الضرورة إلى الحرية، من الاستغلال إلى العدالة، ومن التبعية إلى الاستقلال، ومن الاستهلاك إلى الإنتاج، ومن سطوة القبيلة أو العائلة أو الطائفة إلى الدولة الحديثة، ومن الدولة التسلطية إلى الديمقراطية”، تعني الحدثة “الإبداع الذي هو نقيض الاتباع، والعقل الذي هو نقيض النقل”. [6]

والحدثة بحسب تعبير رولان بارت، طوفان معرفي، وزلزال حضاري عنيف، وانقلاب ثقافي شامل .. الحدثة - أيضًا - موقف عام وشامل ومعارض للثقافات التقليدية السائدة، الحدثة تدعو إلى إعادة النظر في كثير من الأشياء، والتحرر من كل القيود، الحدثة ثورة على كل ما هو تقليدي في المجتمع، الحدثة عملية تقدمية، حتى لو كان المخاض عسيرًا، فهي تنشده عصرًا جديدًا يقترن بالتطور والتقدم وتحرر الإنسان، الحدثة رؤية فلسفية وثقافية جديدة للعالم، الحدثة حالة وعي الواقع؛ وبالتالي نقده. [7]

ويصف ماكس فيبر [8] الحدثة بفك السحر؛ إذ تلاها تفكك التصورات الدينية للعالم تفككًا أوجد في أوروبا ثقافة لا دينية [9]، ويُسمى هذا الأمر بالعقلانية.

والوصف الأخير يكشف عن وجه للحدثة نعده مقيّمًا، فهي تعني التمرد على الدين، واعتبار أن الدين يناقض العقل، فهي ثورة على الدين لصالح العقل البشري، فهي رفض للروح والغيب وانتصار للمادية بكل صورها.

وفي هذا السياق فإنَّ البعض أبرز الحداثة من هذا المنظور، فألان تورين [10] يقول: إنَّه من المستحيل إطلاق كلمة حديث على مجتمع يسعي قبل كل شيء لأن ينتظم، ويعمل طبقاً لوحي إلهي أو جوهر قومي، كما يقول: ” تحل فكرة الحداثة محل فكرة الله في قلب المجتمع، وتقتصر الاعتقادات الدينية على الحياة الخاصة بكل فرد من جهة، ومن جهة ثانية فإنَّه لا يكفي أن تكون هناك تطبيقات تكنولوجية للعلم؛ كي نتكلم عن مجتمع حديث، ينبغي أيضاً حماية النشاط العقلي من الدعايات السياسية أو من الاعتقادات الدينية”. [11]

ونحن لا نريد أن نطيل في تعريف لغوي أو اصطلاحي، فالواقع أنَّ الحداثة ومناهجها التي ولدتها لقراءة النصوص تكشف بوضوح أنَّها تهدم الصلة بين الحاضر والماضي، وتتصور أن قطع هذه الجذور هو السبيل الأمثل للتحرر الفكري أو التحرر من سلطة النص والانطلاق في ظلال العقل، ولما كان العقل من وجهة نظرهم قد تقيّد بقيد المورث الديني، فلا بأس من التحرر من هذا المورث بحجة إطلاق الحرية للعقل دون أي نوع من القيود السابقة، باعتبار أنَّ الدين يضع حدوداً للعقل، لا يجوز له أن يتجاوزها.

وإذا كان هذا المفهوم للحداثة، وأنَّها نشأت لمناهضة سيطرة رجال الدين والفكر التقليدي في أوروبا لتحل الطبيعة محل الله، ويحل العقل كلية محل النص، فلاشك أنَّ الحداثة بمفهومها الغربي ولدت نتيجة للحادث في أوروبا خلال القرون الوسطى، والثورة الصناعية، وحركات الإصلاح الديني.

وإذا كان الفرقاء مجمعين على نشأة الحداثة في الغرب، فإنَّهم مختلفون على التأريخ لها، فغالبية الباحثين يرون أن بواكير الحداثة بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر في الغرب وفي حقول الأدب بعد أن قوضت الرومانسية أركان الكلاسيكية، فنشأت الحداثة على أيدي شعراء فرنسا شارل بودلير، ورامبو، ولامارليه؛ أي: مع نهاية الرومانسية وبداية الرمزية، ثم ظهرت مذاهب أدبية أخرى كما هو معروف. دعا الحداثيون إلى التحرر من الكثير من القيود، والثورة على التقليد والمحاكاة، ورأى بعضهم أنَّ الحداثة جاءت نتيجة تراكمات وإرهاصات للمذاهب والتيارات الأدبية والفكرية السابقة للحداثة.



كتاب (القراءات الحداثية للنص القرآني) تأليف د. محمد عبدالفتاح عمار



ولكن هناك من يعود بمصطلح الحداثة إلى القرن الخامس عشر؛ أي: ربما إلى حركة مارتن لوثر الذي قاد الشقاق البروتستانتي ضد الكنيسة والتمرد على سلطتها الروحية، دون أن نغفل دور التقنية التي سهلت ومهدت لهذا التمرد، لاسيما اختراع الطباعة التي قال فيها مارتن نفسه إنها من أسمى فضائل الرب على عباده .. ومنهم من يربط الحداثة بديكارت صاحب مذهب الشك في القرن السابع عشر؛ أي: إعمال العقل، وإعادة النظر في كل شيء، ومنهم من يربط المصطلح بعصر التنوير في القرن الثامن عشر، حيث ميدانه العقل والاستنارة على ضوء العلم والتكنولوجيا.

وأخيرًا هناك من يربط مفهوم الحداثة بمطالع القرن العشرين؛ أي: بالإمبريالية على خلفية احتلالاتها الاستعمارية؛ أي: في عصر الإذاعة والكهرباء ووسائل النقل السريعة، ووسائل الاتصالات المبتكرة، كل هذا الاختلاف في تاريخ هذا المصطلح ناجم عن الاختلاف في تحديد مفهوم الحداثة وغرضها، واختلاف الرؤية إليه.

## أسباب نشأة القراءات الحداثية

أمّا في العالم العربي فيمكن إرجاع الحداثة وخاصة القراءات الحداثية ونشأتها إلى جملة أسباب:

- **السبب الأول** الصدمة الحداثية التي أصيب بها بعض الحداثيين، وانبهار المثقفين العرب والمسلمين بالثقافة الغربية.
- **السبب الثاني** الاستشراق والدراسات الاستشراقية التي أسهمت في ظهور هذا الاتجاه التأويلي خاصة أن بعض الدراسات كان الهدف منها رفع المصدر الإلهي عن **القرآن الكريم**.
- **السبب الثالث** حركة الابتعاث إلى الخارج في عهد محمد علي في مصر وحقى يومنا هذا.
- **السبب الرابع** هو التحرر من المناهج التقليدية لفهم القرآن، وذلك بزعم أن تلك المناهج التقليدية لم تعد صالحة لفهم القرآن في هذا الزمان.
- **السبب الخامس** هو التوجه **الأيديولوجي** لبعض المنتمين لهذا التيار ومعاداة الثقافة الإسلامية . [12]

## دوافع القراءات الحداثية



والواقع أنه لا يمكن إنكار قوة دافعين أساسيين للأخذ بها :

**الدافع الأول:** حيث استخدمت كرد فعل لحالة الجمود الفكري والعقلي التي سادت العالم العربي حتى أوائل القرن التاسع عشر، والاستبداد السياسي، واستغلال الدين لترسيخ الاستغلال السياسي والسلطوي للحكام.

**والدافع الآخر** هو الانبهار بالغرب وثقافته وهو مازال معيارًا فاعلاً لدى الكثير حتى وقتنا الراهن حيث يرون في الغرب بثقافته، ومنها: الحداثة، النماذج المعيارية والأمثل الذي يجب الاحتذاء به، والسير على نهجه دون إمكانية خلق مشروع مستقل وذاتي نابع من تراثنا المعرفي والديني الزاخر.

وهو بالطبع مردودٌ عليه بأنّه إذا كانت الحداثة بالمفهوم الغربي تتمركز وتتمحور حول العقل، فإنّ العقل أيضًا هو محور أساسي في الثقافة الإسلامية، ولم ينكر أحد دعوة الإسلام إلى العقل وإعمال الفكر في أمور الدنيا، كما أنّ للعقل في أمور الدين باعًا طويلًا، وتراثًا ضخمًا يتمثل في الاجتهاد والاستنباط والقياس وعلم أصول الفقه، وهو علم منهجي يقوم أساسًا على استخدام العقل لقراءة النصوص واستخلاص الأحكام الشرعية منها.

الحقيقة أنّ بعض رواد التنوير نقلوا إلينا الحداثة كبضاعة معلبة ومضادة ضد فيرس الاستبداد السياسي في محاولة لتحريير الشعوب من الظلام الذي فرض عليهم بقوة النص أو بقوة الدين . كما تصوروا-، فكانت الحداثة مجالًا خصبًا للنيل من كثير من جوانب العقيدة الدينية حتى وصل الأمر إلى اتباع المناهج الأدبية لقراءة النص القرآني.

نحن لا ننكر أنّ العالم العربي والإسلامي كان في حاجة في لحظات تاريخية بل حتى الآن إلى ثورة فكرية وحضارية، لكن السؤال هل من الضروري أن ترتكز هذه الثورة على المنهج الحداثي بمفهومه الغربي؟ وهل لا بُدَّ أن نتخذ الحداثة سبيلًا حتى نرقى وتتطور المجتمعات العربية إلى الأحسن؟ وكأنّ الحداثة والحضارة الغربية التي قامت عليها هي السبيل الأوحّد لذلك.

الحقيقة التي يجب أن نؤكد عليها من مفهومنا أننا في غنى عن الحداثة المادية التي تحل الطبيعة محل الخالق، وتنكر الغيب على حساب المادة، أما العقل فله مكانته، ولم يحدث أن دعى الدين الإسلامي إلى محاربته، بل على العكس احترمتها العقيدة الإسلامية، ودعى القرآن في أكثر من موضع إلى استخدامه، وذلك في الإيمان ابتداءً، وفي النظر إلى قدرة الخالق والتدبر في أحكام الدين وقواعده.



ومن وجهة نظرنا المحضة فإنَّ المبررات التي قامت عليها الحداثة في الغرب غير موجودة أصلاً في المجتمعات الإسلامية وإن تشابهت الأحداث من حيث تحكم السلطة والاستبداد السياسي باسم الدين هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن لدينا من حضارتنا ما يكفي لخلق حدثنا بمفهومها الروحي والعقلي المتكامل، و الخطأ الذي وقع فيه رواد التنوير هو تصورهم وحتى هذه اللحظة أنَّ المشروع الغربي بثقافته هو الأمثل بل الأوحده، ولا سبيل سواه للتقدم ورفي الإنسان.

إنَّ الحداثة التي هدمت الكهنوت الديني، وقامت على أنقاض الدين في الغرب لا يمكن أن يكون لها بهذا المفهوم دور حقيقي في نهضة الأمة الإسلامية، فلا الظروف هي الظروف ولا الدوافع هي الدوافع، نعم نحن في حاجة إلى ثورة العقل، ثورة المعرفة، لكننا لا يوجد لدينا كهنوت كالكهنوت الغربي، ولا يمكن فصل الدين الإسلامي عن الدولة، ولا عن الحياة العامة، فالدين المعاملة، والرسول كان قرآنًا يمشي على الأرض.

فالإسلام مشروعٌ متكاملٌ للفرد والدولة، ونظامٌ متكاملٌ للمجتمع والمؤسسات، مشروع يحتاج إلى التطبيق الذي لم يرَ النور تقريبًا إلا في عصر الرسالة، وفي عهد الراشدين، وفي قليل من اللحظات التاريخية المضيئة في تاريخ العالم العربي الإسلامي.

أما استبداد الحكام باسم الدين، أو انحراف بعض رجال الدين في أي عصر من العصور، أيًا كانت طبيعة هذا الانحراف سواء انحراف لتأييد السلطة الحاكمة في استبدادها، أو انحراف عن الأفكار السليمة والقويمة ونشر التخلف والشعوذة أو حتى الإرهاب باسم الدين- فإنَّ ذلك لا يعيب الدين في أصله، ولا يمسُّ من جوهره وقيمه وذاتيته، وإنما يعيب الأشخاص في أخلاقهم وضمائرهم، والقول بغير ذلك يعني الخلط بين ماهو شخصي وموضوعي، وهو خطأ جسيم لا يقل عن الاستبداد باسم الدين؛ لأنَّه سيتحول إلى استبداد ضد الدين باسم العقل.

ولو أخذنا بهذا المعيار الذي ينادي به الحداثيون فإننا فضلًا عن أننا سنفتقد الموضوعية، فإنَّه أسوة بتحميل الإسلام أخطاء المستبدين ورجال الدين والمتطرفين، يتعين علينا أن نرفض الحضارة التي صنعت القنبلة الذرية التي قتلت الملايين، رغم أنَّ الحضارة والذرة نفسها بريئة من هذا القتل الذي تقع مسؤوليته على مَنْ استخدموا العلم للهلاك والإهلاك بدلًا من البناء والتنمية.



الخلاصة أنَّ الحداثة بمفهومها الغربي لا يمكن لها أن تستقيم أبدًا مع منابع المعرفة الإسلامية، وتتصدم بقوة مع مفهوم الدين لدى المسلمين، ثم الأهم من ذلك أنَّ المسلمين يمكن لهم خلق نوع من الحداثة تنهض بهم دون أن تنفصم مع عرى التراث، ولا تنقطع روابطهم بدينهم ولا تراثهم المعرفي والثقافي، ونشير إلى مقاله أحد رواد النهضة في العالم العربي والإسلامي الإمام محمد عبده عند تفسيره لقوله تعالى: { اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } (الفاحة : 6)، فذكر مانسميه بالهدايات الأربع، وهي تمثل سبل المعرفة:

- العقل

- النقل

- التجربة

- الوجدان

وعلى ذلك تتوازن في مشروعنا الحضاري النهضوي مصادر المعرفة عالم الغيب وعالم الشهادة، وتتوازن سبل المعرفة أيضًا، وهي: العقل، والنقل، والتجربة، والوجدان، لننجو من المأزق الذي وقعت فيه كل من الوضعية والمادية [13].

إن الدوافع مختلفة والبيئة الاجتماعية والمعرفية والدينية بيننا وبين الغرب مختلفة؛ لذا فإن استعارة أفكار الغرب ومحاولة تعريبها أو أسلمتها هي في الغالب تفضي إلى فراغ وعدم، ولا تحقق أي نتائج، بل أحياناً قد تمسُّ ثوابت العقيدة، وتزعزع الثقة في الدين، وتفضي على الهوية، والأفضل والأجدر لعلمائنا وفلاسفتنا ومفكرينا البحث والتنقيب في كتابنا المقدس، وأحاديث الرسول ﷺ، وفي تراثنا الفقهي والفكري والثقافي بكل جوانبه عن مناهج وأفكار تصلح لمجتمعاتنا، وترسخ لقيمنا، وتحافظ على هويتنا دون شعور بالنقص والتقزم أمام أفكار الغرب، والتصور أنَّ تلك الأفكار المستوردة هي الأمثل، وأنها المعيار والنموذج الذي لا انفكاك عنه، ولا سبيل للأخذ بغيره.

إنَّ علينا أن نرهق أنفسنا في مراجعة تراثنا النقلي منه والعقلي، وسنجد ما فيه الكفاية لتحقيق مأربنا في الحفاظ على ديننا ودينانا، وتحقيق ذاتيتنا.

كما أنَّه لا يتصور بأي حال من الأحوال أن تكون هناك نهضة إسلامية عربية دون الربط مع الماضي بقيمه وعلومه وفكره، ولا يتصور أيضًا إهمال النص، والتضحية بالتراث؛ لخلق حداثة إسلامية عربية.



يمكن أن يحدث ذلك في الغرب، لكنه لا يتصور مطلقاً بالنسبة للحضارة العربية والإسلامية التي لا ينفصل فيها النص الديني عن الفكر، ولا تنفصل فيها القيم عن الواقع، فالإسلام هو المنظم للحياة وللطبيعة وللزواج والتعايش والتعامل في الأسواق والبيع والشراء والحكم والإدارة، وكل ما يحكم الدنيا والدين وجد إما صريحاً وملزماً في نصوص القرآن والسنة النبوية المطهرة والثابتة، وإما وجد في صورة مبادئ وقواعد عامة، يمكن للعقل أن يجتهد ويعمل تحتها لخلق أحكام وتطبيقات تصلح لمسيرة واقع الحياة والمتغير من أحوال المسلمين، بل والمستجد؛ نتيجة لتطور الحياة بشقي منحيتها.

النص الإسلامي لم يترك شيئاً إلا ووضع تفاصيله، فإن لم تكن هناك تفاصيل، فقد ترك للعقل مهمة استنباط التفاصيل من خلال الاجتهاد وإعمال الفكر والاستنباط من القواعد الكلية والمطلقة، إذًا فثقافتنا وحضارتنا كما يقولون هي حضارة النص وثقافته، ولا أرى عيباً في ذلك من جهة، ومن جهة أخرى لا أرى أن ذلك تقييدٌ للعقل، ولا حجر عليه؛ لأنّ النص نفسه هو الدافع والحاض على إعمال العقل، وهو الذي يدفع إليه دفعاً، ويدعو لاحترامه وقديسيته، ويُعَدُّ من مقاصد الشريعة التي ينبغي الحفاظ عليها.

إنّها ليست ثقافة جمود، فالنص نفسه في كثير من مواضعه يرتبط بالحكم الوارد فيه بعلته، والعلة إن تغيرت بتغير الزمان أو لم تعد موجودة، فلا حاجة لتطبيق الحكم، والعقل هنا يؤدي دوراً كبيراً في تنزيل الحكم على الواقع، واستكشاف علة الحكم .

فقاعدة بناء الأحكام على العلة أو حتى بنائها على الحكمة أو المصلحة الشرعية من وجهة نظرنا فيما يتعلق بالمعاملات دون العقائد والأوامر الملزمة التي تخضع للعلة التي قدر الخالق كفايتها لإلزامية الحكم، قاعدة بناء الأحكام على العلة أو الحكمة تكفل للأحكام مرونة التطبيق وحيوية التجديد، وهناك مناطق شاسعة ومحطات كبيرة في العقيدة والفكر الإسلامي مجالها للعقل والفكر والإبداع والتطور الذي يلائم الواقع، وهذه بالتأكيد من خصائص **العقيدة الإسلامية** التي تنعكس على ثقافة المسلم ولولا ذلك ما كان هذا الدين هو الدين الصالح لكل زمان ومكان حتى قيام الساعة.

## الخاتمة



الحقيقة أنّ الاستيعاب والقدرة على احتواء الظواهر والمعارف والعلوم هي التي كفلت للإسلام ديمومته، وهي أكبر دليل على أنّه دين معجز، وأنّ محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء؛ لذا أبدع علماءنا ومفكرون في العصور الذهبية ووضعوا علومًا، وطوروا في علوم أخرى، بل وضعوا مناهج علمية لإعمال العقل ممثلة في قواعد القياس والاستنباط والاجتهاد الفقهي والمعرفي، أمّا في مجال التفسير، فلاشك أنّ هناك مناهج تتفق وطبيعة النص القرآني، وهي حاضرة بقوة ومنضبطة في عمل المفسرين، فلم يكن تفسيرهم خبط عشواء مطلقًا، وسنرى ذلك تفصيلًا.

فإذا كان من غير الممكن إنكار استفادة الغرب من أفكار مفكرينا وعلمائنا وفلاسفة العرب والمسلمين كابن رشد وغيرهم وترجمتهم لمؤلفات العصر الذهبي للثقافة الإسلامية، فنحن أولى من الغرب بعلمائنا ومفكرينا، وما علينا إلا فتح الخزائن؛ لنشفي منها أمراضنا، ونروي منها ظمئنا الذي طال كثيرًا وكثيرًا، وليس أدل على نقص هذه المناهج الحدائثة الغربية من ظهور ما يعرف بما بعد الحدائثة [14]، كرد فعل على الأفكار التي قامت عليها الحدائثة، فلم تسلم الحدائثة من النقد، بل أن كل منهج جديد من المناهج الحدائثة قائمٌ على هدم المنهج السابق عليه، والوقوف على أنقاضه معلنًا فشله في الوصول إلى مبتغى الحدائثة التي يزعمون .